

## أثر المتنبي

احتفلت الجامعة الأميركية في بيروت ، مساء الأحد الموافق في ٢ حزيران ١٩٣٥ ، بمرور الف سنة على وفاة أبي الطيب المتنبي . فتكلم في حياة الشاعر ومختلف آثاره وخط من أديب العالم العربي وشعرائه ، ممثلين مصر وال عراق ، وفلسطين ، وسورية ، ولبنان . وها اننا لنشر في ما يلي الخطاب الذي ألقاه فؤاد أفرام البستاني ، استاذ الآداب العربية في جامعة القديس يوسف ، وموضوعه : « أثر المتنبي »

أيها السيدات والسادة

كان الناس يقولون ، قبل الف سنة ، اذا ما عرضوا لذكر شاعرنا : « المتنبي ؟ ... هو شاعر سيف الدولة ا » اما نحن فنقول اليوم : « سيف الدولة ؟ ... هو بمدوح المتنبي ا »

...

عبثاً ينتقب الاثريون ، في ارض حلب ، عن قصر اميرها العظيم ، وعبثاً يفتشون عن مصانمه العديدة في الثغور . فقد انهارت تلك الابنية الفخمة ، في حين ان بناء المتنبي لا يزال ماثلاً في ديوانه العالي ، يرتاده اديب العالم العربي منذ الف سنة حتى اليوم ، ويردد آياته كل من عرف شيئاً عن هذه اللغة في اي عالم كان .

بيد ان ابا الطيب لم ينتظر مرور القرون ليتسع بهذه الشهرة الواسعة ، ويحدث هذا الاثر البعيد . فقد كان له ، حتى في حياته ، حظ نادر في سعة الشهرة . وبعد الاثر - وكأنه صرد حاضره ، وقتياً عن مستقبله ، عندما قال :

وما الدهر الا من رواة قصائدي اذا قلت شعراً ، اصبح الدهر مثداً  
فارب من لا يبرء شعراً ؛ ونحى به من لا يفيء مفرداً

لم يكن ينشد القصيدة الا سارت في البلاد تجرد بها الركبان من منزل الى منزل ، وينقلها الاديب من مجتمع الى مجتمع . يستعيد مقاطعها المدوح ورجاله

طربين ، ويزري عليها الحساد غاضبين . يسمع بها الشعراء ، وهم كثير ، فيقرأونها في خلواتهم ، فيعجب المخلصون منهم بقوتها وسورها ، ويجهد غيرهم في طمس محاسنها ؛ على انهم جميعاً يتأثرون بها في مدارجهم المختلفة . يتفقد ابياتها ارباب اللغة ، وسادة النحر ، وشيوخ الصناعة النظمية ، فيتعبط الاصدقا . منهم بما فيها من تركيب جديد ، وصورة طريفة ، وجرأة نادرة ؛ ويحتج الاعداء على ما يرون من غموض نافر ، وشروء شاذ . يتعصب له البيضا . في بلاط سيف الدولة فينتشر مآثره ، ويتعصب عليه ابو فراس فيفتش عن سرقاته وكلهم يعملون ، عن قصد وعن غير قصد ، على نشر شعره والاشادة بذكوه . والمتنبى الشاعر لا يبدو حافلاً بهذه المظاهر ، يتابع طريقه فانراً شامخاً « يترك السرى خلفه » للتنافين الساعين وراء القوائد المحكمة ، « وينام مل جفونه عن شواردها » ، مطشناً طائئنة الفنان القدير الذي لا يخشى مزاحمة ولا يخاف غلبة . وتتجاوز المناظرات بلاد حلب الى العراق وفارس ، فيحاول ابن العميد ، زعيم ادباء الشرق في عصره ، اخماد ذكر المتنبى ، فلا يقوى الا على ايلام نفسه . عندما يتحقق ان احدى قوائد الرجل ، وهي مرثيته في اخت سيف الدولة ، قد جابت البلاد العربية والمعجبة ، على قلة وسائل النشر وصعوبة المواصلات اذ ذاك ، في اقل من سنة ونصف سنة

ويقضي المتنبى قتيلاً . وتكرر الاعوام تلو الاعوام ، والعالم الادبي على انقسام في شأنه ؛ وما انتقم العالم الادبي في شأن شاعر الا كان عظيماً . هناك الناقون وفي طليعتهم صاحب بن عباد ، ثم ابو سعيد العبيدي ، يفتشون عن « سرقات المتنبى لغزاً ومعنى » . وهناك المريدون والمعجبون ، وعلى رأسهم ابو العلاء الممرى ، يسمون بالشاعر الى الارج ، فيدعون ديوانه « معجز احد » . وكان من الطبيعي ، وقد خفت وطأة المآرب الشخصية والتحامل العاطفي ، ان يقوم من الادباء حزب ثالث ينتدب نفسه بالحكم الفصل بين الفريقين ، فيتخذ التحفظ وانداً والتوسط موقفاً ، معتبراً ان خير الامور الوسط . هو فريق المحلحين . كان منهم القاضي الجرجاني ، وابو منصور الثعالبي ، وابو علي الخالقي . كتب الاول « الوساطة بين المتنبى وخدمه » ، وافرد الثاني في « بيتته » فصلاً ضافياً لذكر ما

المتنبي وما عليه ، وألف الثالث رسالة « نيا وائق المتنبي في شعره كلام  
ارسطو في الحكمة » . حتى اتى ابن الاثير فذكر كثيراً من محاسنه وماونته في  
« المثل المازة » .

ولكن جهود هؤلاء المصلحين لم تحسم الخلاف ، فظل شاعرنا على روعته يثير  
الاعجاب والازدراء .. يرى فيه اكثر النقاد الشاعر الشاعر ، فاذا ارادوا ان  
ينمتوا عبقرية ابن هاني ، اشمر شعراء الاندلس وافريقية في عصره ، لقبوه  
« بجنبي العرب » ، ويحتفرون بعضهم فلا يراه ابو هلال العسكري بشي .  
ويخرجونه ابن خلدون وشيوخه من هيكل الشعر . والله ابن خلدون ما انفذ بصره  
في علم العمران واصوله ، وما اقتصره في الحكم على الشعر والشعراء .  
ريغوز الحزب الاول فتراجع حملات الانتقاص شيئاً فشيئاً عن ذلك الصرح  
العالي ، فيدور ديوان المتنبي المشال الاعلى للشعر العربي ، ويصبح اسم المتنبي  
مرادفاً للشاعر العظيم . وهكذا يقطع عصر الانحطاط الى القرن التاسع عشر ،  
فيتأثر بعظته الشيخ ناصيف اليازجي ويهتف : « كان المتنبي يمشي في الجور ،  
وسائر الشعراء يمشون على الارض ! » وتتعدد الشروح والتعليق على شعره  
يتناقص فيها ادياب العرب والمستشرقون من ابن جنبي الى الافليلي الى المرعي الى  
التبريزي الى الواحدي الى المكبري الى اليازجي في الشرق ، ومن رايكته الى  
دي ساسي الى هامر الى نيكلدون الى بروكلن الى بلاشير الى فرنسيسكو  
كبريالي في الغرب .

\*\*\*

هذه لمحة سريعة تفيدنا ، وان سطحية ، ما اكتنف اسم المتنبي من شهرة  
واسعة وما كان لشعره من اثر بعيد ، وما احدثت شخصيته من ضجة « ملأت  
الدنيا وشغلت الناس » ، على حد قول ابن رشيق .  
فاذا اجتهدنا الان في تحديد العوامل التي ساهمت في احداث هذا الاثر ،  
ثم انتهينا الى الحكم في هل افاد الشعر العربي ام لا ، نكون قد علمنا على  
جمع اطراف الموضوع .  
اما العوامل الخارجية فاقواما ما كان من منافسة اسراء العصر ، كل اميد

بشاعره ، وما كان من حسد الشعراء بعضهم لبعض . وقد اشرنا الى شي . من هذا بما لا يتسع معه المجال للتفصيل .

على ان هناك عوامل اعق واثبت تنحصر في صفات هذا الشعر الذي جابه العقبات مدة الف سنة ، ولا يزال ، في قسم كبير منه ، على جذته الاولى يضاف اليها روعة القدم وجلال التاريخ .

يستند الاثر الادبي في نشأته الى عناصر متعددة منها ما يتعلق بالعصر الذي وُلد فيه ، وبالبيئة التي غذته ، فيتأثر بالموثرات الظرفية ، وينحصر للاوضاع والتقاليد المحلية ، ومنها ما يسو فوق المكان ، فيتصل بطبيعة النفس البشرية وهي واحدة في جوهرها ، على اختلاف ما يكيفها من الاعراض . فاذا آذن العصر بالانتقال ، وتحورت عادات الشعب وتقاليده ، اضحى الاثر الادبي ، في عناصره الظرفية المحلية ، عرضة للاضمحلال ؛ فلا يبقى الا ما بما من عناصره فوق الاحوال المتقلبة . وكلما قوي اتصال الاثر بالعناصر السامية كان صالحاً للحياة والحلود .

اما شعر المتنبي فان فيه ، والحق يقال ، قسماً كبيراً يستند الى العوامل الظرفية والتقاليد الجارية في زمانه لفظاً ومعنى . وان يكن هذا القسم لا يزال باقياً ، فانما هو بقاء المومياة المحنطة لا بقاء الكائن الحي ، يُحفظ في المكاتب كما تُحفظ في المتاحف . وقد يعجب به مؤرخو الادب وبعض من شبرا على النظر بعيون القرون الخالية فلم يروا الا روعة القدم ؛ ولكنه لا يصلح غذاء ، للثقافة الانسانية الكاملة . وما اعجاب اديبا القرن التاسع عشر بهذا النوع التقليدي الا الدليل الواضح على ان الذوق الادبي في عالمنا ظل جامداً مدة القرون العديدة ، فلم يتطور الا في المدة الاخيرة . ولعل من خير الامثلة ما ذكره الشيخ ابراهيم اليازجي في بدائع المتنبي من ابيات :

كأنَّ البير كانت فوق جفني سناخات ؛ فلما حُرمن ، سالا

هذه الصورة الابلية الضخمة ، البيئة فساد الذوق في عصرنا ، كان يعجب بها الثعالبي قبل عشرة قرون ، ويُعجب بها اليازجي قبل خمسين سنة . . . او أدل من هذا المثل على ان الذوق الشعري قطع في احسن السنة

الاخيرة ، بل في العشر السنوات ، مسافة لم يقطها في الالف السنة السابقة !

\*\*\*

بيد ان هذه المعاني التقليدية والصور القديمة ليست باكثر ما في شعر المتنبي . فهناك طائفة صالحة تستند الى العناصر الانسانية الشاملة ، المرتفعة فوق الزمان والمكان . هناك الحان فضحة وقمها ابو الطيب على ارتار . العواطف الابدية من شكوى ، وألم ، وتظلم ، وازدراء ، وترفع عن التعزية حتى الانفة والكبرياء . هي نعتات تلاقي صدى بعيداً في كل قلب بشري . لان في كل منا ميلاً الى التظلم من الناس حتى الاصدقاء ، والى التشكي من الدهر ، والتظاهر بشي . من التشاؤم المترفع حتى الازدراء . بالحياة ومظاهرها الخلابه . وذلك ان هذه الحالات تدغدغ حب الذات وتعمل على رفع الانسان ، وان بالوم ، فوق اقاربه . وهو مظهر متأصل في النفس البشرية أنى كانت نشأتها .

من منا تماكسه الايام في بعض ما يريد ولا يصرخ بشي . من الاسف :

تجري الرياح بما لا تشتهي الفن !

من منا ، اذا تراكت عليه الزاايا وكاد ينقطع وتر الاحساس من فواده ،

لا يتسلم قائلاً :

فسرت اذا اصابتني - هام ! تكسرت الشمال على الشمال

حتى اذا سمع شاعرنا يقول :

عش عزيزاً ، او بت وانت كرم

عاود الكرة يبارك الدهر ، وفي معاركة الدهر نشوة تلذها النفوس

الكبيرة ، وان آبت بالفشل .

من منا اذا اسودت الدنيا في عينيه ، وسرعان ما تسود ، فرأى نفسه

عرضة للتحامل والاحجاف يعرض عنه الاصدقاء . ويغفوه الاحباء ، لا يردد متألاً :

أذم الى هذا الزمان أهله فاعلمهم قدم واحزمهم وغد

حتى اذا بلغت به المصائب مبلغ القنوط ازدري البشر اجمعين ، واعرض

عن كل تعزية دنيوية ، فصاح :

ولا تشك الى خلق نشته : شكوى الجريح الى الفرمان والرحم

وإذا امتزج القنوط في نفسه بالحدق ، رفع صوته وارسل تلك الاحكام  
الدامغة :

لا تشر البيد الا والماسه ا  
با أمة ضحكك من جهلها الاسم !

وهناك ، فوق هذه العوائف ، حالات نفسية سامية يدركها الانسان ، اذا  
انتابته الحطوب المتعددة ، فصقلت التجارب نفسه ، وخفت من تروبات قلبه ،  
فاصبح يرى الحياة من قمة عالية فيستغرب اصطحاب الخلق على سطحها الاسفل  
وتزاعهم في سبيل الغايات الشخصية الثابتة ، فيردد :

ومراد النفوس احتر من تنادي فيه وان تغاني

ويخاطب الدنيا مغاظة القرن لقرنه :

كذا انا ، يا دنيا ، اذا شئت فاذهبي

او يقف شاهداً مترفعاً يتفلسف ببرودة تجاه حماقات الزمان ، ومزالاته بين  
السعادة والشقاء . :

معائب قوم عند قوم فوائد

حتى اذا اراد ان يحنو على البشر فيقف منهم مرقف الناصح الشفيق ،  
كان له من ابيات المتنبي ايضاً صدى لمقاصده ، وتحقيقاً لرغباته .  
وان من يتسمق في درس الحالات النفسية ، ويتظفل الى خفايا الاخلاق ،  
ويسير هادياً في متاهات العوائف ، حتى يرى كل انسان في اقواله صورة امياله  
الداخلية ، ويسمع صدى همساته الخفية ، أجديراً بان يكون في بطبيعة المترجمين  
عن هذا القلب الذي كان ولا يزال محور الادب الخالد ، يكتشف التوائغ كل  
يوم في حناياه شيئاً جديداً ، وتظلل اشياء كثيرة قيد الاكتشاف .

هذا هو المتنبي ، الشاعر الانساني ، في القسم المخلص من شعره .

خصه الباري بمبقرية نافذة ، صقلتها ثقافة واسعة ، وغنتها اختبارات حمة  
في عصر توافرت فيه الاضطرابات من فكرية وسياسية ، فاقام الشاعر بحال  
قلبه فيشرح فيه كل قلب ، ويعبر بلسانه فينطق به عن كل لسان . ويستند ، في  
كل ذلك ، الى صفة فطرية صبغت اناره معنى ومبنى ، ووافقت مرقماً حساساً من  
الناس ، الا وهي القوة .

القوة اس لكل ما تقدم ذكره من الصفات الشاملة، تظهر بمظهرين عامين :  
الثقة بالنفس ، والاتفة او الكبرياء . والناس مفطورون على الثقة بالنفس ،  
ميالون الى الاتفة ، فاذا لم يدركوها استعاضوا بالكبرياء ، تلك الاتفة الزائفة .  
وهم ، على اى حال ، معجبون بالقوة ، حتى الجبناء منهم .

كان من نصيب المتنبى ان يبني ادبه العالى على أس القوة ، وهو أس ثابت ،  
قبت . بناء على القوة الفكرية واخرجه في القوة التعبيرية ، فراع الناس بهذا  
البناء الشامخ ، واعجبهم بما فيه من ألفة بين المعنى والمبنى . والمعنى والمبنى لا  
ينفصلان في الحقيقة ، فلا يقوم معنى جليل في مبنى ضئيل ، كما انه لا يعيش  
المبنى المتين على المبنى الضيف المتذل ، واذا عاش قالى حين . ولا يدوم الاثر  
الادبي الا اذا كان مبنياً ذا وحدة متينة ، وسواء أكانت هذه الوحدة في الاثر  
كله ام في بعض مقاطعه . فان الحلود يلتحق بالمظهر المتردد ، ولو كان بيتاً  
فرداً . وهو ما نراه في بناء المتنبى . فان من عوامل تأثيره انفراد ابياته الحكيمية  
وسيرها قطعاً مصكوكة تتداولها الذكريات ، ويصقلها الاستشهاد ، فاذا هي  
على كل لان منذ الف سنة يحفظها العالم واجاهل ، ويوردها المثقف والاسي .  
على ان هذا البناء العظيم لا يقيه المتنبى حجارة دكتا . لا لون فيها ولا حياة ،  
على نحو ما نعرف في الكثير من النظم الحكيمية . انا هي صور شعرية رائنة  
كانت جديدة في عصرها فآثرت في السامعين ، وتتابع اثرها متغلغلاً الى شعراء  
اليوم ؛ هي مشاهد فخمة حتى في دقائقها ، منها ما سرّ عليه الزمان فضاء ،  
ومنها يسا لا يزال في مقدمة المثل الشعرية ، يستفيد منه الكثيرون ، كوقفه  
سيف الدولة في المعركة :

وقفته وما في الموت شك لو اقف ؛ كأنك في جفن الردى وهو نائم

قرأ بك الابطال كلنى ، هزيمة ، ووجهك وضأح وثنرك باسم

ومثلها كثير . واغلبها في تصوير المارك ، بما يتناسب وفضرة المتنبى القوية ،  
تحفه موسيقى شديدة الوقع ، آثرت دون شك في سير هذا الشعر ، لانها  
عملت ، مع ما تقدم ذكره من العناصر ، على وقع السامع الى جوار خاص من  
المنظمة ، تكثفه الخلبة ، ويسوده شي . من الفوضى الفخمة تسوقها القوة في

التشيل والايحاء، فتضيق فيه هنات التعبير ونشزات المبالغة، اذ تناسب مقاطعها وتنقلم اطرافها، اذا صحّ التعبير، فيقيسها السامع بقياس تأثره وانفعاله. حتى اذا هبط به الناقد الى سكينته العلم، اطلمه على الكثير من مزالت الجرأة ونزوات الخيال. على ان هذه المفردات نفسها كانت من اسباب شهرة المتنبي ايضاً، اذا اعتبرنا ذوق ذلك العصر، وما كانت توفر من مناظرات لارباب النحو واللغة والشرح يقضون بها ايامهم فيساهمون هم ايضاً، في مدّ شهرة الشاعر وبسط نفوذه، حتى ان الواحدي جعل من اسباب فضل المتنبي «خفاء معانيه» وكثرة ما يحتمل كلامه من وجوه التفسير وضروب التأويل».

فلا عجب — وهذه شخصية المتنبي — ان يوثّر ذلك الاثر البالغ في الشعر والشعراء، فيقلّده المذاهبون، وينظر اليه نظام الحكم في جميع اقطار العربية، من فارس الى الاندلس، منذ عصره الى ايامنا؛ ألا فترات في عصر الانحطاط، قصر فيها المقلدون حتى عن النظر اليه، فاخرجوه من بين الشعراء، وكانهم تزعموا من امامهم الهدف الصعب المنال. اجل لا عجب ان نرى اثر المتنبي يطوي القرون حتى يصل الى القرن التاسع عشر بل الى القرن العشرين، فنسح صدى نبواته الثورية في شعر الشيخ فاضل اليازجي، ومحمد سامي البارودي، بل في بعض شعر احمد شوقي.

\*\*\*

ولا يعني الان — وقد ادركنا ختام البحث — الا ان نقول هل افاد هذا الاثر ادبنا العربي ام لا؟

بما لا شك فيه ان المتنبي رفع مستوى الشعر العربي، فبرز فيه المثال الاعلى يُقتدى به في جميع فنونه. فكان من حسن اثره ان الشعراء، في سيرهم على طريقته، كادوا ينصرفون عن تلك الاستهلاكات البزلية البالية في قصائد المدح. قلنا: ادوا، لان الداء اعدى من الصحة، وفساد الذوق ابلغ اثرًا من حسنه. ثم يمكننا الحكم ان المتنبي افاد في ادخال شيء من «الشعر» في تلك المنظومات الحكيمية الجافة، وان كان لم يقو على تغيير نوع زائف مجرّجه عن الطبيعة. ويجب القول ايضاً انه ساهم بالتعبير الشعري، فاضحى الشعراء بملء

يتطلبون السمو والغمامة ، وجمال السبك ، وقوة الرفع .  
 على ان شخصية ابي الطيب البارزة ملكت على مقلديه .شاعريهم . فقدنا  
 ذلك المثال العالي في عصره ، مثالا اعلى لكل العصور والازمنة ، لا في الشعر  
 والاخراج فقط ، بل في التعرض للفنون الشعرية نفسها ، فانصرفوا يجدون وراءه  
 في ابي عصر كانوا ، وفاتهم ان لكل عصر زياً في الادب ، ومثالا للشعر ، كما  
 ان لكل عصر فنوناً قد لا تكون للعصر السابق او اللاحق . وفاتهم ان  
 من قلده شاعراً بتقيد ورهبة واحترام ، اقرضنا بتفرقه عليه في كل شي .  
 فقصر عنه في كل شي .

لقد قلده المتنبي ابا تمام والبحري ، ولكنه فاقهما . لانه عرف كيف يجعل  
 شعره صورة لحياته المختلفة عن حياتهما . اما شعراء العرب منذ عصر المتنبي ،  
 فلم يتصوروا اختلافاً في حياتهم عن حياته ، وبالتالي فانهم لم يتوهموا فنوناً  
 غير الفنون التي طرقتها ، حتى افقنا اليوم وليس في تراثنا الشعري الا  
 قصائد المدح والثناء والمهجا والمفاخر والحكم . وليس الذنب في ذلك للنتبي ،  
 انا هو لمقلديه الضخام ، ولما كان في محيطهم الادبي من جود وجفاف :

ان الشاعر ، ايأ كان ومهما سما ، لا يصلح مثالا اعلى لجميع الفنون الشعرية  
 في كل زمان ومكان . هو يمثل اعلى ما وصل اليه فنه في عصره فيصلح مثالا  
 يقتدى به لا رسماً يُقلد ، بل هو غذا . يستفاد منه في تنمية الثقافة العامة وكما  
 ان الانسان ، اذا ما تناول طعاماً ، يكون قصده تحويل الطعام الى ما يصلح  
 لغذائه ، لا تحويل نفسه الى ذلك الطعام ، كذلك على كل من يقتدي بشاعر  
 ان يستد منه غذا . لشخصيته الادبية ، لا ان يحول شخصيته الى حرة ناقصة  
 لذلك الشاعر .

هكذا يتقدم الشعر ، وهكذا تبرز الشخصيات الشعرية . فلا نستبعد للماضي ،  
 ولا تقطع الصلة بيننا وبينه ا